"البحّار" لـ هاشم غرايبة.. رواية تستعيد الذاكرة بين الفقر والتحولات وأسئلة الإنسان



نخيل نيوز /خاص

يصحبنا الكاتب الأردني هاشم غرايبة في روايته "البحّار.. حي ولا أخاف"، في رحلة لاستكشاف الذاكرة الإنسانية، وما تختزنه من تفاصيل صغيرة تبدو عابرة، لكنها تظل حاضرة في الوجدان، عاكساً في أحداثها سيرة الإنسان بالنظر إلى تحولات المجتمع، والانتقال بين الطفولة والفقر والشيخوخة، وخوض التجارب الشخصية والعامة التي تطرح الأسئلة الكبرى المتعلقة بالإنسان والحياة والمصير.

تحمل الرواية التي صدرت طبعتها الثانية عن "الآن ناشرون وموزعون" (2026) في ثناياها عالمًا روائيًا قائمًا على الاعتراف واستعادة الذاكرة، من خلال شخصية "سليم الناجي"، الذي تظهر مسيرته الحياتية بوصفها تجربة إنسانية بسيطة، بعيدة عن صورة الأبطال التقليديين.

تبدأ الرواية التي جاءت في ما يقارب 130 صفحة، من الفصل الأول "على الرصيف"، حيث يجد الراوي نفسه في المدينة، بعد انتهاء التحقيق معه، لتبدأ رحلة استعادة الماضي والبحث في تفاصيل حياة امتدت عبر عقود. ومنذ الصفحات الأولى، تتشكل علاقة وتتوطد تدريجياً بين الذاكرة والكتابة، إذ يقرر الراوي أنْ يكتب كل ما يعرفه، وكل ما عاشه وقرأه وسمعه، لتصبح الأوراق وسيلة لاستعادة ما غاب من حياته.

نقرأ في الرواية: "أجمل ما في كتابة الاعترافات: استرجاع متعة الاستغراق في لحظات جميلة تجاهلتها لسبب ما"، قبل أن يستعيد الكاتب مجموعة من الصور والروائح والأصوات التي بقيت عالقة في الذاكرة، من صلاة الأم في غبشة الفجر، إلى مذاق "الكردوش" (خبز الشعير) الساخن، وهطول الشهب في ليالي الحصاد، ومذاق العسل مع السمسم، ورائحة فتّة الشاي بالخبز، والمرور بميناء هامبورغ في ألمانيا، ورذاذ المياه عند شلالات نياغارا، وقمر أيلول على درب مهرّبي البضائع على الحدود.

وتنتقل الرواية بين هذه التفاصيل الحميمة وبين أسئلة أكثر قسوة، تتعلق بالفقر والمرض والحروب والتحولات السياسية والاجتماعية. ويظهر ذلك بوضوح في الفصل الثاني المسمى "زمن الخسارات"، الذي يستعيد فيه الراوي طفولة قاسية، منذ وُلد "بين حربين عالميتين"، في زمنٍ لم يكن تسجيل المواليد فيه أمرًا شائعًا، بينما كان الفقر والجوع والأمراض ومخاطر الحياة اليومية تحاصر الناس.

ويروي البطل جانبًا من تلك الطفولة، فيقول إن من ينجو من الإسهال والحصبة والجدري قد يموت بعضّة أفعى أو رفسة بغل أو انهيار سقف، قبل أن يذكر حادثة الشقيق الرضيع الذي خطفته "الشُّوحة" (طائر الحدأة الجارح) عن البيدر، بينما كانت الأم منشغلة بفك حِمْل القش عن الناقة.

وفي مقطع آخر، تنتقل الرواية من الذاكرة الشخصية إلى قراءة أوسع لأوضاع الشباب والمجتمع العربي، إذ يخاطب الراوي شخصية "أحمد سامي"، الشاب الذي أصبح رمزًا لجيل يرى أنه حُرم من فرصه، قائلاً: "الشباب قمتم بتقزيمهم، وتثبيط هممهم، وأهملتم المتفوقين والمبدعين منهم لصالح المنافقين والمحاسيب والرّاشين"، منتقدًا ما يراه تراجعًا في التفكير الحر والبحث العلمي والفن والثقافة.

كما يتناول النص علاقة الأجيال الجديدة بالمجتمع والوطن، معتبرًا أن جيلاً كاملاً نشأ وسط غياب المشاريع الكبرى التي تستثمر طاقات الشباب، وأن هناك ضعفَ اهتمام بالثقافة والفنون والبحث العلمي، وهو ما يربطه الراوي بالتحولات التي دفعت حفيده "أحمد" إلى مسار مختلف تمامًا.

وتتخذ الكتابة داخل الرواية وظيفة أساسية في مواجهة النسيان، يقول الراوي: "أنا أعيش في عالم دنيء، ولكني حي ولا أخاف"، قبل أن يكتشف أن ما يكتبه قد يبقى بعده، وأن الكتابة تفتح له نافذة على الأبدية.

نقرأ على الغلاف الأخير فقرة تعكس هذا المنحى الاعترافي، جاء فيها: "أجملُ ما في كتابةِ الاعترافات استرجاعُ متعة الاستغراق في لحظاتٍ جميلةٍ تجاهلتُها لسببٍ ما: صلاةِ أمّي في غبشة الفجر التي لا أسمع منها إلا حرف السِّين، لحس ذرَّات السكَّر البنيِّ العالقة بخطوط كفِّ أمي، مذاقِ الكردوش السَّاخن بعد انتظاره نصفَ يوم، هطولِ الشُّهب في ليلة من ليالي الحصاد الصافية، مذاقِ العسل مع السمسم معقودًا على خُنصر أمّي، صوت حليب البقرة يشخَبُ من

بين أصابع أمّي، المرورِ المتعجِّل بميناء هامبورغ في ألمانيا، الاعتذارِ عن سهرةِ كيفٍ في عوّامة النيل، رذاذِ الشّلال على جلد (سيكا) عند شلالات نياغارا، سطرٍ من قصيدة لا أتذكّر شاعرَها، قمرِ أيلول على درب المهربين".

وتجمع "البحّار.. حي ولا أخاف" بين السيرة والذاكرة والرواية، وتستعيد عبر تفاصيل الحياة اليومية عالمًا تتجاور فيه الطفولة مع الشيخوخة، والفقر مع السفر، والخسارة مع الأمل، لتقدم في النهاية تأملاً في قدرة الإنسان على الاستمرار رغم ما يحيط به من خسارات وتحولات.

يذكر أن هاشم غرايبة من مواليد قرية حوّارة شمال الأردن، حصل على شهادة البكالوريوس في المختبرات الطبية من العراق سنة 1975، ثم شهادة البكالوريوس في الاقتصاد من جامعة اليرموك سنة 1990، رأسَ تحرير مجلة "براعم عمّان" التي كانت تُصدرها أمانة عمّان الكبرى (1997)، ورأسَ تحرير مجلة "وسام" التي تُصدرها وزارة الثقافة، كما عُيّن مديراً للدائرة الثقافية في بلدية إربد (2005/2006)، ومنسقاً عاماً لاحتفالية إربد مدينة الثقافة الأردنية سنة 2007. واختير عضواً في مجلس إدارة جامعة إربد الأهليّة (1995)، ومجلس أمناء الكلية الأردنية للعلوم والتكنولوجيا (2007-2009)، ومجلس كلية الفنون الجميلة بجامعة اليرموك (2012-2014).

نال غرايبة جائزة محمود سيف الدين الإيراني للقصة القصيرة من رابطة الكتّاب الأردنيين سنة 1987 عن مجموعته "هموم صغيرة"، ومُنح درع الرواد العرب (من جامعة الدول العربية بالقاهرة) عن مجمل أعماله الأدبية سنة 2000. كما نال جائزة محمدّ نزّال العرموطي للإبداع والدراسات العمّانية (حقل الرواية) التي أطلقها آل العرموطي برعاية بيت الشعر الأردني سنة 2008 عن روايته "الشهبندر". وفاز بمنحة ضمن مشروع التفرغ الإبداعي الثقافي الذي تشرف عليه وزارة الثقافة سنة 2007.

كتب غرايبة وأعدّ مجموعة من السيناريوهات والبرامج الإذاعية والتلفزيونية، وشارك في العديد من الندوات والمؤتمرات الثقافية والفكرية العربية، وصدر له أعمال أدبية في الرواية والقصة والمسرح والنصوص، من بينها: "هموم صغيرة"، "قلب المدينة"، "عدوى الكلام"، "حبة قمح"، "بيت الأسرار"، "المقامة الرملية"، "الشهبندر"، "بترا: ملحمة العرب الأنباط"، "أوراق معبد الكُتبَا"، "القطّ الذي علّمني الطيران"، "الحياة عبر ثقوب الخزان" و"الوقوف على قدم واحدة".